الفصل الخامس
أعمال المستشرقين

كان للمستشرقين أعمالاً وجهوداً وذلك لتحقيق أهدافهم وغاياتهم وعليه يمكننا أن نستعرض هذه الأعمال كما عرضها د. سفر بن عبد الله الرحمن الحوالي في كتابه العلمانية نشأتها وتطورها وآثارها في الحياة الإسلامية المعاصرة.

١- الطعن في حقيقة القرآن وحقيقة الإسلام وحقيقة النبوة: فقد قالوا عن الإسلام أنه تطوير محرف لليهودية والنصرانية أو هو جزء من مجموعة الأديان الشرقية تولد من الاحتكاك بين الوثنية العربية بأديان فارس والهند. وأن القرآن من وضع محمد ﷺ أو من إملاء راهب نسطوري تعلم على يديه محمد مدة طويلة في الشام أو هو نتف من نسخ التوراة والإنجيل المهجورة وآراء المتحنثين من العرب كورقة بن نوفل مع اقتباسات من الحكمة الشعرية لبعض المتأملين الروحانيين كأمية بن الصلت.. الخ ثم قالوا أن القرآن بعد وفاة محمد ﷺ كان موزعاً بين الصحابة في العظام والجلود وجزء محفوظ في الصدور حفظاً غير تام ولا متناسق وبعد سبعين سنة - أي بعد أن تبعثرت العظام والجلود ورمت ومات الحفاظ - وجد المسلمون أن الضرورة تقتضي جمع القرآن فاجتمعوا (كما يجتمع رجال اللاهوت) وأحضر كل منهم ما كان في حوزته منه واتفقوا على تنظيمه وتبويبه لكنهم تشاجروا في مواضيع كثيرة وأخيراً فرضت السلطة الحاكمة نسخة معينة وأحرقت كل النسخ المخالفة بدون مبرر ونتيجة لذلك جاءت النسخة المعتمدة غير متحدة الموضوع ولا متناسقة السياق بالإضافة إلى كونها غير مرتبة، فالسور التي

وضعها - أو جمعها أو ... محمد في أول ادعائه وضعت في آخرها بينما وضعت الأخيرة في أولها.. الخ ثم يقولون أن اليسار الإسلامي - الشيعة والرافضة - ظل يحتفظ بنسخ أخرى تبلغ أضعاف النسخة المتداولة التي كان يعتقد أن قسماً كبيراً منها قد فقد بسبب شاة تسللت إلى موضعها فأكلت الجزء المتعرض للخلافة من بعد محمد. أما نبوة محمد ﷺ فقد قالوا عن تلقي الوحي أنه نوبات من الصرع والهستريا أو نوع من العبقرية الشعرية في أحسن تقدير، أو أن محمداً لم يكن إلا اللسان المعبر عن المذهب الذي كان يعتقده الراهب بحيرا، وكان يمليه عليه في الصحراء العربية ويكتبه ثم يدعي أنه وحي من الله، وقد قالوا عن رسول الله ﷺ نفسه أنه كان مجهول النسب ولذلك دعي ابن عبد الله كعادة العرب فيمن يجهلون أباه، وأن اسمه الأصلي قثم فلما عبده العرب سموه محمداً لتقديس وأنه كان (حاشاه ﷺ) رجلاً شهوانياً ويعاقر الخمرة بل تطرق بعض المستشرقين الشيوعيين فقالوا أنه (سيدنا محمد ﷺ) أنه شخصية خيالية.

أما الطعن في السنة فقالوا أن محمداً في حياته كان يعد كل ما يتكلم به قرآناً. وبعد موته نشب نزاع سياسي بين المسلمين احتاجت الأطراف المتنازعة إلى تأييد آرائها وإذا لم تجد ما تؤيد به من القرآن نسبت كل فرقة إلى محمد أقوالاً كثيرة لصالحها. ومن مجموع هذه الأقوال كتب علماء المسلمين بعد ثلاثة قرون - أي بعد أن يكون كل شيء قد ضاع واختلط - كتباً سميت كتب الحديث والسنة وألزموا المسلمين - باستثناء اليسار طبعاً - وسموا أتباعها أهل السنة تمييزاً لهم عن اليساريين - ثم يعمدون إلى النقد المفصل للسنة فيطعنون في كبار الصحابة حفاظ السنة كأبي هريرة والزهري ويقولون أن بعض الشخصيات كعروة بن الزبير الذي يروي عن خالته عائشة رضي الله عنها شخصية خيالية. وغيرها من الطعون التي تحملها كتبهم ومؤلفاتهم الفجة غير الموضوعية ولا علمية.

٢- القول بأن الإسلام استنفد أغراضه: وهي دعوة تأتي في صور شتى منها وصف الإسلام بأنه دعوة أخلاقية جاءت لإنقاذ المجتمع العربي من عاداته السيئة كعبادة الحجارة ووأد البنات والسلب والنهب وشرب الخمر.. الخ وتارة يوصفون بأنه حركة اجتماعية تهدف إلى تغيير البنية الاجتماعية والقبلية والاستبدال بها

تركيباً اجتماعياً قومياً متحضراً للعرب مرة يقال - هو خاص بالمستشرقين الشيوعيين - أن الإسلام ثورة غير ناضجة ضد الطبقة التي كانت تسود المجتمع المكي تولدت من الصراع بين الطبقة الكادحة مثل محمد وبلال وصهيب والطبقة الرأسمالية أمثال الوليد بن المغيرة وأمية بن خلف. وأقوال مؤداها اعتبار الإسلام ظاهرة معينة في فترة زمنية محدودة يجب أن تدرس وينظر إليها كما لو كان قطعة من الأحافير القديمة لا علاقة لها مطلقاً بالواقع المعاصر.

٣- **القول بأن الإسلام طقوس وشعائر روحية** أو على أحسن الأحوال دين بالمفهوم الغربي الضيق فلا دخل له بأمور الحكم والحياة الاجتماعية والنشاط الاقتصادي.. الخ وقضية الخلافة بدعة لا أساس لها في الإسلام ومحمد إنما جاء ليؤسس ديناً ولم يكن يهدف إلى تكوين دولة.. وعندما خرجت جيوش الإسلام الأولى لم يكن هدفها إلا السيطرة على المستعمرات الرومانية الخصبة وإكراه أهلها على الإسلام ولكن العرب الفاتحين أعجبوا بالتنظيمات السياسية والإدارية التي كانت لدى الروم فاقتبسوها منهم ثم ادخلوها في صلب عقيدتهم بغرض التلبيس على العوام وضمان استمرار نفوذهم. ومنذ ذلك الحين ظهرت البدعة القائلة أن الإسلام دين ودولة في آن واحد.

٤- **القول بأن الفقه الإسلامي مأخوذ من القانون الروماني**.وهي دعوى مركبة على الدعوى السابقة هدفها إسقاط توحيد الألوهية من جهة شأن الأخذ من القوانين الوضعية من جهة أخرى فما دام الفقه القديم مستسقى من أصول أوروبية فما المانع اليوم من الاقتباس من القوانين الأوروبية كالقانون الفرنسي أو السويسري.. الخ

٥- **الادعاء بأن الشريعة الإسلامية لا تتلائم مع الحضارة.** واضح أن هذا الادعاء يقوم على استغلال الشعور بالنقص والإحساس بالتخلف الذي وخز الأمة الإسلامية عند احتكاكها بالحضارة الأوروبية. فقالوا إن الإسلام دين قبلي صحراوي وشعائره وتشريعاته لا تنسجم مع الحياة العصرية المتمدنة، وكيف يصح أن يعيش الإنسان على شريعة الصحراء والجمال، بل أن هذه الشريعة نفسها هي سبب التخلف وداء الشرق العضال.

٦- الدعوة إلى نبذ اللغة العربية وهجر حروفها وأساليبها وهي دعوى موازية للدعوى السابقة وتحتج بالحجة نفسها - عدم ملاءمتها للحضارة - وغرضها مسخ الأمة وقطع صلتها بدينها نهائياً ومن هذه الدعوى تفرع القول بأن النحو العربي غير علمي وافتعال التضاد بين قواعد النحو واللغة وبين أساليب القرآن بقصد هدم الاثنين معاً. والزعم بأن الشعر الجاهلي وكثيراً من شعر صدر الإسلام منحول لأن اللغة والتفسير يستمدان الشواهد منه.

٧- إثارة ما يسمى (قضية تحرير المرأة) وهي دعوة ركز عليها أولئك لعلهم بنتائجها المتعددة التي منها الطعن في الشريعة ذاتها لأنها سبب احتقار المرأة بزعمهم ونشر الإباحية والانحلال في المجتمع الإسلامي والقضاء على الأسرة الذي يؤدي إلى تجهيل النشء بدينه ويتيح لهم الفرصة لتربية أبناء المسلمين كما يشاؤون فقالوا إن الإسلام يحتقر المرأة لذاتها ولا يجعل لها قيمة معنوية سوى الاستمتاع المجرد وأنه يبيح بيع وشراء وسبي النساء وأنه يوجب على المرأة أن تعيش وتموت جاهلة مهملة بما يفترض عليها من حجاب، ويعد حقها في الترفية والاستمتاع عاراً شنيعاً في حين تتاح للرجل كل وسائل اللذة بالتسري وغيره... ومزاعم أخرى كثيرة كان الواقع السيئ يمدهم بأدلتها ويسهل عليهم إثارتها.

٨- التهوين من شأن الحضارة الإسلامية وتشويه تاريخها. يزعم المستشرقون أن أعظم مآثر المسلمين الحضارية هي نقل التراث اليوناني - نقله فقط وحفظه من الضياع - وأن روائعهم العمرانية مقتبسة من الفن البيزنطي... الخ أما تشويه التاريخ الإسلامي فلم يدعوا وسيلة لذلك إلا سلكوها حتى سلبوه كل فضائله وحصروه في الناحية السياسية ليصبح سلسلة من المشاحنات والمؤامرات والدسائس ثم كرسوا الحديث عن الحكام في موضوعات الحريم والجواري والشعراء وعمدوا إلى عظمائه في الحرب والسلم فوصفوهم بالجمود والتزمت ومعاداة التحضر واتخذوا من الخزعبلات المدسوسة في التراث مصادر لتشويه سيرتهم ومن هنا بذلوا جهودهم لترجمة ونشر تلك الخزعبلات ومنح الدرجات العليا للباحثين فيها فكانت ثمرة ذلك كله أن مفهوم الحضارة الإسلامية لا يتجاوز عند غالبية المثقفين لا يتجاوز معنى كلمة (فولكلور).

٩- بحث الحركات الهدامة والطوائف الضالة وتضخيم أدوارها. وهذا جزء من تشويه تاريخ الإسلام إلا انه استأثر باهتمام بالغ منه لأنه يحقق أغراضاً كثيرة في آن واحد فقد حرصوا على تجديد الغزو الفكري البائد الذي نظمته الطوائف والفرق المنحرفة كالباطنية بفروعها المتعددة من إسماعيلية وقرامطة وبابكية والعبيدين المسميين الفاطميين والزنج أصحاب الثورة المعروفة والدروز والمتصوفون وفرقهم مع العناية الخاصة بالشخصيات الضالة كالحلاج وعبد الله بن سبأ وعبد الله بن ميمون القداح والحاكم العبيدي.. الخ هذا غير الفرق التي أحدثت للغرض نفسه كالقاديانية والبابية وفروعها.

١٠- نبش الحضارات القديمة وإحياء معارفها. تخصص عدد من المستشرقين في هذا المضمار فعكفوا على دراسة اللغات البائدة والتنقيب على آثار الغابرين، ولفقوا من رفات هش ما أسموه التاريخ الحضاري للعرب ثم مروا على آثار تلك الحضارات إلى العصر الحاضر فبدأ الفتح الإسلامي وحضارته نشازاً في هذه السلسلة أو في أحسن الأحوال عاملاً من بين عوامل عدة، ومن أمثلة ذلك بعث الفرعونية في مصر والآشورية في الهلال الخصيب والحميرية في اليمن واختلقوا القومية الطورانية لحساب الجمعيات السرية التركية ونجم عن ذلك نتائج خطيرة منها تحسين سمعة الجاهلية وتمجيد طواغيتها الغابرين وبث الثغرات الانفصالية وقطع صلة الأمة بماضيها الحقيقي أو على الأقل إشغالها عنه وتهيئة النفوس لتقبل إمكان قيام الحياة المتحضرة بدون الإسلام كما عاشت تلك الحضارات قبله.

١١- وضع منهج لا ديني للبحث العلمي. ولو لم يكن ثمرة جهودهم إلا هذه لكفي، فإن جامعات العالم الإسلامي المعاصرة تدرس التراث الإسلامي وفق ذلك المنهج الذي يتشح بالموضوعية والحياد العلمي وهو أبعد ما يكون عنهما، ومن أوضح وأقرب الأمثلة على ذلك ما نلحظه في كتابات كثير من الباحثين المسلمين من إصرار على استعمال عبارة قال القرآن عند إيراد الآيات احترازاً من قول قال الله. وإطلاق لفظة (محمد) تماماً كما يستعملها المستشرقون بدون ذكر الرسالة أو الصلاة عليه ﷺ.

وأعمال المستشرقون متقدمة الذكر تسير وفق خطة مدروسة فهي تتغير تبعاً

لمقتضيات التغيير بعد تقييم نتائج المرحلة السابقة. ولذا فلا غرابة أن تختفي من كتبهم الأساليب الاستفزازية والطعن المكشوف إذ يبدو أن خطة (احتواء الفكر الإسلامي) هي المعمول بها الآن وأياً كانت النتائج فإن ما اضطلع به هؤلاء من مهمة تدمير المقومات الإسلامية وتمهيد الأرضية الفكرية التي تقوم عليها الحياة اللادينية في الشرق قد أتى أكله في كثير من الميادين[١].

زعم بعض المستشرقون والمتأثرون بكتاباتهم من العرب أن مرحلة الحقد كانت ناشئة عن شعور بالحقد على المسلمين ناشئ عن الشعور بالنقص فلما أمسك الغرب بزمام القوة بردت نار الحقد وهذا غير صحيح لعدة اعتبارات وبراهين:

١- استمرار بقاء كثير من المؤسسات التبشيرية الإستعمارية بين ظهرانينا كمدارس الإرساليات والجامعات الأمريكية بالقاهرة وبيروت واستنبول.

٢- إن المستشرقين في كل البلاد الإستعمارية تقريباً يتبعون وزارة الخارجية ولا يزالون كذلك مثل (ميتشيل) الذي أصدر في السبعينات كتابه (الأخوان المسلمون) مما يدل على أن مهمتهم سياسية وليست علمية فـ (انتوني إيدن) رئيس وزراء إنجلترا السابق الذي شغل من قبل منصب وزير الخارجية وأسهم فيما بعد في العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦م لم يكن يتخذ قراراً سياسياً يتصل بالشرق الأوسط إلا بعد الرجوع إلى المستشرقين من أساتذة الجامعات وخاصة جامعة اكسفورد وكلية العلوم الشرقية من أمثال (مرجليوث) كما أن المستشرقين من اليهود لا يزالون يعملون على تحقيق أهداف الصهيونية العالمية كما أشار (يوري ايفانوف) اليهودي الماركسي في كتاباته يقول (بيجن) أمام ممثلي الجيش الإسرائيلي في ٢٨ أكتوبر ١٩٥٨م أنتم أيها الإسرائيليون يجب ألا تكونوا رؤوفين عندما تقتلوا عدوكم، عليكم أن لا تشفقوا عليه ما دمنا لم نقض بعد على الحضارة العربية (الإسلامية) التي

(١) سفر بن عبد الرحمن الحوالي، العلمانية نشأتها وتطورها وآثارها في الحياة الإسلامية المعاصرة ص٥٤٤-٥٤٩.

ستبنى علي أنقاضها حضارتنا. وليس ببعيد تلك المؤامرات اليهودية الأمريكية التي عقدت في الإسكندرية وبعض العواصم الغربية. واشترك فيها بعض الشيوعيون المصريين بهدف أو تحت مظلة الدراسات النفسية المطلوبة من أجل وجود حالة طبيعية بين العرب وإسرائيل في أواخر السبعينات ثم أوائل الثمانينات.

٣- وقد أشار الدكتور علي حسن الخربوطي إلى أن الاستشراق والإستعمار قد يلتقيان أحياناً في الطريق الواحد إذا دعت الحاجة أو حتمت الضرورة السياسية ذلك.

٤- لا تزال المجلات الاستشراقية والمؤلفات والبحوث ودوائر المعارف التي يحررها المستشرقون تقذف بالأكاذيب والمغالطات والشبهات على الإسلام وأهله، ويستعينون بتلاميذهم في بث المغريات، بل ويحيون العصبيات العنصرية لتمزيق الشرق الإسلامي بين فرعونية في مصر وبربرية في شمال أفريقيا وكردية في كل من العراق وإيران.. الخ

٥- ولا يزال بعض المستشرقون المعاصرين يعترفون بذلك يقول (برنارد لويس): (لا تزال آثار التعصب الديني الغربي ظاهرة في مؤلفات عدد من العلماء المعاصرين ومستترة وراء الحواش المرصوصة في كتابات البعض الآخر). ويقول (نورمان رانيل) على الرغم من المحاولات التي بذلها بعض الباحثين في العصور الحديثة للتحرر من المواقف التقليدية للكتاب المسيحيين عن الإسلام فهم لم يتمكنوا أن يتجردوا منها تجرداً تاماً كما يتوهمون[١].

لقد أقبل اليهود على الدراسات الاستشراقية لأسباب دينية وسياسية. أما الأسباب الدينية فإنها تتمثل في محاولة إضعاف الإسلام والتشكيك في قيمه بإثبات فضل اليهودية عليه وذلك بإدعاء أن اليهودية في نظرهم هي مصدر الإسلام الأول. أما الأسباب السياسية فإنها تتصل بخدمة الصهيونية العالمية فكرة أولاً ثم

(١) عبد المتعال محمد الجبري، الاستشراق وجه الإستعمار الفكري، الطبعة الأولى (القاهرة: مكتبة وهبة، ١٩٩٥) ص١٧٣-١٧٤.

دولة ثانياً وقد ظل اليهود طوال تاريخهم يتحينون كل فرصة متاحة ليكيدوا للإسلام والمسلمين، فدخلوا تحت رداء العلم كما وجدوا في الصهيونية باباً يفرضون منه سيطرتهم على العرب والمسلمين[١].

في سنة ١٨٩٧م عقد المؤتمر الصهيوني الأول كما هو معلوم، حيث أقر المؤتمرون في مدينة بال بسويسرا ما يمكن أن يعد دستوراً لتحقيق مشروع الدولة اليهودية الذي أعده ثيودور هرتزل وقد انبثق عن المؤتمر أن تنشأ منظمات متخصصة في السياسة والاقتصاد لتحويل هذا البرنامج النظري إلى واقع تطبيقي[٢] ودخل حيز التنفيذ في عام ١٩٠٧م عندما صدر وعد بلفور الشهير الذي يعبر عنه الفلسطينيون بقولهم (من لا يملك أعطى لمن لا يستحق) واستمرت إسرائيل تتوسع وتمتلك وتحقق الأهداف بأقل الخسائر في سبيل تحقيق حلمهم في دولة من الفرات إلى النيل.

(١) محمود حمدي زقزوق، الاستشراق والخلفية الحضارية للصراع الحضاري/ الطبعة الثانية (قطر: مؤسسة الرسالة ١٩٨٥م) ص٤٩-٥٠.

(٢) عبد العزيز بن مصطفى كامل حمى سنة ٢٠٠٠م، الطبعة الأولى (الرياض: دار السليم للنشر ١٤٢٠هـ) ص٤٧-٤٨.